جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة – الجزائر
ISSN: 1112-4377, EISSN: 2588-2384
المجلد: 29 العدد 03 السنة 2025
مجلة المعيار
EL MIEYAR

الأمّة والقومية في التداول الفكري للحركة الإصلاحية الجزائرية

The Nation and Nationalism in the Intellectual Discourse of the Algerian Reformist Movement

ياسين شامخ[1]
chamekh.yassine@univ-emir.dz

رمضان بن بخمة[2]
r.benbakhma@univ-emir.dz
https://orcid.org/0000-0002-9844-5387

تاريخ الاستلام: 2025/01/31 تاريخ النشر: 2025/06/01
Received: 31/01/2025 published: 01/06/2025

ملخص المقال :

تشكل القومية جدلا فلسفيا وإيديولوجيا طارئا في فكر الحركة الإصلاحية الجزائرية لما لها من الجدة التاريخية، حيث لايزال التنظير قائما حولها إلى وقتنا المعاصر، على اعتبارها مسألةـ وإن اختلفت المواقف حولها ـ ذات أبعاد سياسية واستراتيجية فرضت وجودها تجاذبات التحول والبعث القومي، ويحاول هذا المقال استخدام الأمة و القومية كلمتان مفتاحيتان ليستكشف من خلالهما شواغل بعض أبرز مفكري تلك المرحلة، ونسعى من خلاله إلى تفكيك معنى الأمة و القومية في فكر الحركة الإصلاحية الجزائرية وبيان تنامي التنويه بهذا المعنى على مختلف الأصعدة، كما يهدف هذا المقال لإبراز القومية من ناحية الرصد التاريخي وظهور القومية القطرية ثم إرهاصات الدعوة إلى الوحدة القومية العربية في فكر الحركة الإصلاحية الجزائرية.

كلمات مفتاحية: الأمة، القومية، الهوية، الحركة الإصلاحية الجزائرية

Abstract:

The Algerian Reformist Movement addressed nationalism as a new philosophical and ideological debate due to its historical novelty. Theorization around it continues, as it remains a political and strategic issue shaped by national revival transformations. This article aims to deconstruct the concepts of nation and nationalism in the thought of the movement's key thinkers while highlighting the growing focus on these ideas. It also explores the historical evolution of nationalism, from the emergence of territorial nationalism to the early calls for Arab unity within this intellectual framework.

Keywords: Nation; Nationalism; Identity; Algerian Reformist Movement.

(1) **مخبر الدراسات الدعوية والاتصالية**، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.
(2) **مخبر الدراسات الدعوية والاتصالية**، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر.

مقدمة:

يتفق المؤرخون والدارسون والكُتاب على تسمية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين عصر القوميات، وشهد هذا العصر انقلابات سياسية خطيرة بتأثيـــر فعل الفكرة القومية وانتشارها بين الشعـــوب وتغلغلها في النفـــوس، حيث كان مفهوم الدولة قبل ذلك يرتبط بمفهوم "الملك" وينفصـل تمام الانفصـال عن مفهوم "الأمة" وكان الشـعور القومي في البلاد العربية تابعا إلى الشعور الديني فترة طويلة حتى عصر القوميات والنهضات الوطنية أين بدأت تتشكل ملامح الفكر الإصلاحي الذي اتخذ من القومية إحدى أدواته في إصـلاح اللغة والأدب والتأسـيس لمفهوم الأمة والسـعي الحثيث في التنظير نحو مشـاريع الوحدة الأممية القومية والحضارية ، وعليه نطرح السؤال المركزي الآتي:

ما دلالة مفهومي القومية والأمّة في التداول الفكري لدى الحركة الإصلاحية الجزائرية؟

ويندرج تحت هذا السؤال المركزي التساؤلات الفرعية الآتية:

- كيف كانت علاقة الرابطة القومية بالنزعة الوطنية في المرحلة التي واكبت الحركة الإصلاحية الجزائرية؟
- هل كان مفهوم الأمة يشير إلى فكرة المواطنة الكاملة في فكر الحركة الإصلاحية الجزائرية؟
- ما مدى إسهام الهويات القومية الوطنية في مشاريع الوحدة العربية والإسلامية؟

أزمة الهوية وإشكالية القومية والأمّة في فكر الحركة الإصلاحية:

في مستهل الحديث عن أزمة الهوية في فكر الحركة الإصلاحية لعله من المفيد هنا أن نشير إلى تصادم مشاريع الوحدة القومية في نهاية القرن الماضـــي وبداية القرن الحالي بالعولمة التي فرضـــت نظرياتها في محاولة منها لإجهاض كل محاولات الوحدة عالميا أو الانكفاء القومي، سـيّما وأن الهوية تتمركز في بعدين رئيسـيين وهما: البعد الحضـاري والبعد القومي، وحيث إن القومية شـكلت في العصر الحديث جدلا فلسفيا وإيديولوجيا متضـاربا، فكانت من المفاهيم التي دارت حولها رؤى وتصورات مختلفة، إذ كان مفهومها بالنسبة إلى المؤرخ والديبلوماسي الأمريكي (هيز) " تجسيدا عظيما لإخلاص البشر، ووفائهم لجنسيات كبيرة، والتأسيس الواعي لـ ((أمّة)) على جنسـية لغوية وثقافية، أمّا المسـألة المركزية التي يجب التصـدي لها كما يزعم (هيز) :ما الذي منح القومية في العصـر الحديث هذه الشعبية الدارجة؟ ففي اغلب حقب التاريخ المدون ظل البشـر أوفياء مخلصـين لقبائلهم، أو عشـائرهم، أو مدنهم، أو مقاطعاتهم، أو قصـور نبلائهم، أو نقاباتهم أو إمبراطورياتهم المتعددة اللغات، والقومية عبارة عن تعبير آخر لميول البشـر الاجتماعية التي ليسـت أكثر طبيعية أو كمونا من النزعة القبلية أو الإمبراطورية، إن ما جعل القومية هذه القوة الكبرى في القرن التاسـع عشـر هو بعض الميول الأساسية المعينة، وأهمها على الإطلاق تنامي بالدولة القومية بوصفها الوسيلة الفضلى التي يمكن بواسطتها تحقيق التقدم البشري والتحضر الإنساني" . (أوزكيريملي، 2013، صفحة 71)

وتتلخص فكرة القومية من حيث الأساس في وجوب تأسيس الدول على أساس القوميات لأن كل أمة من الأمم تكون عضوية اجتماعية طبيعية، ذات كيان معنوي خاص، فيحق لها أن تستقل في إدارة شؤونها دون أن تخضع لمشيئة أمة أخرى ، وأن تؤسس دولة خاصة بها مستقلة ومنفصلة عن غيرها . (الحصري، 1951، صفحة 4) .

إذن وبناء على ما سبق؛ يمكننا هنا أن نطرح أحد الأسئلة شديدة الأهمية وهو كالآتي: أي الهويات الجامعة لوحدة الأمّة؟ وهذا يحيلنا على سؤال آخر وهو: عن أي أمّة نتحدث في هذا الصدد؟

هل نقصد بالأمّة الأمّة العربية من المحيط إلى الخليج كما يطلق عليها في كثير من الأحيان، وبالوحدة هنا الوحدة القومية، ومكوناتها الثقافية الأساسية عبر القرون؟ والتي تشكل تحديا عربيا حضاريا مجددا، ومولدا لردود أفعال حضارية ترتفع بهذه الأمّة وتنقذها، أم أننا نقصد بالأمّة؛ القومية القطرية حيث لكل قطر مميزات وخصائص معينة تشكل معنى الأمّة لديه، أم أننا نقصد بالأمّة الوحدة الإسلامية الأممية؟

وللإجابة عن هاته الأسئلة نستعرض معنى الأمّة في الفكر الإصلاحي الجزائري، لكن قبل ذلك، وحسب أوكيرملي فقد طُرح سؤال على المستوى النظري، وهو: متى ظهرت الأمّة ؟ في دراسات وورقات بحث متعددة وظل سؤالا مركزيا ناظما للجدل النظري المعاصر بشأن القومية (أوزكيرملي، 2013، صفحة 351) ، وتماشيا مع ما تم ذكره فإننا بداية نستعرض معنى الأمة وأزمة الهوية في فكر الحركة الإصلاحية الجزائرية، وننطلق من كون هوية العروبة تعتبر هوية ثقافية تبلورت وانبثقت من خلال عوامل شتى، من أبرزها: اللغة، والجغرافيا، والعيش والمصير المشترك، ناهيك عن البعد القبلي والعشائري للتركيبة السكانية العربية ، ولا غرو أنها الهوية التي ينتسب إليها بداية غالبية رجالات ورواد الفكر الإصلاحي في الجزائر بوصفهم زرافات ووحدانا من هذا الشعب؛ كما قال رائد النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس :

شعب الجزائري مسلم وإلى العروبة ينتسب *** من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب.

وطبعا لم تكن القومية إلا دائرة لها تشكلاتها وأبعادها في دائرة الأمة التي أخذت؛ نقصد مسألة الأمة زخما في التفكير النظري الذي دار حولها منذ القرن التاسع عشر إلى بداية الألفية الثالثة حاليا، ويعد الحديث عن مسألة الأمة من المسائل المتصلة بالقومية والوحدة العربية، ويتحدث ابن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، وقبلهما نخبة العلماء الذين بدأت معهم جذور الحركة الإصلاحية الجزائرية في الظهور عن الجزائر بوصفها أمة واحدة، ومن أمثلة ذلك في مقال بجريدة البصائر لمحمد البشير الإبراهيمي كتب بعنوان: « **لا يبني مستقبل الأمة إلا الأمة**» طاف بالأمة الجزائرية في سنيها الأخيرة طائف من يقظة وانتباه لا عهد لها به في سنيها الغابرة، وتفشت تلك اليقظة في جميع طبقات الأمة . (الإبراهيمي، لا يبني مستقبل الأمة إلا الأمة، 1936م، الصفحات 4 – 208)، وعلى منوال ابن باديس والإبراهيمي نسج الشيخ مبارك الميلي بلغته البليغة وكلماته الحكيمة :« **أيتها الأمّة الجزائرية؛ ارجعي إلى دينك ولغتك فلن تسعدي إلا به، ولن تسعدي به إلا بإحكام لغته**» (محمود، 2012، صفحة 29) ، ناهيك عن وصف عبدالحميد بن باديس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بأنها: « **جمعية الأمة كلها، تفرض عليها حقيقتها**

ووضعيتـــها أن تكـــــون فوق الطوائف والأحـــزاب، لتكون بينهم إذا اختلفوا على مصلحة»، غير أن فكرة **أمة شمال إفريقيا الإســلامية** "ظهرت في الجزائر بقلمي عمر راســم وعمر بن قدور، وقد تعرض الاثنان للســجن ســنة 1915 ، بتهمة التجســس لصـــالح الأتراك والعداء للحلفاء، كما طالت حملة الاعتقال تونسيين عديدين منهم: أحمد توفيق المدني، الذي أصبح فيما بعد أحد أركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومن أبرز مؤدلجي القومية الجزائرية" (يمينة، 2006 – 2007، صفحة ص 54).

وبالعودة إلى ابن باديس كونه أحد رواد وقادة الحركة الإصلاحية الجزائرية، نتوقف عند خطاباته وتأسيسا على ذلك نستشف من خلالها أن الأمة في تصوره لها امتدادات؛ تارة وفي أغلب الأحيان يشير بها إلى القومية القطرية ولذلك نجده يترجم في كلامه عن الأمة بقوله (الأمة الجزائرية) ، وتارة خارج مجال الجغرافية والحدود الترابية ، فيمزج بين الإسلام والعروبة، ويطلق عليها أحيانا الوطنية الإسلامية، التي لا تتعصب وتنكر الدوائر الأصغر منها أو الدائرة الإنسانية الكبرى كما قال:

« **الوطنية الإســلامية العادلة هي التي تحافظ على الأســرة بجميع مكوناتها، وعلى الأمة بجميع مقوماتها، وتحترم الإنســانية في جميع أجناســها وأديانها، فالإنســان منذ طفولته يحب بيته، وأهل بيته، وما البيت إلا الوطن الصــغير، فإذا تقدم اتســع أفق حبه، وأخذت تتســع بقدر ذلك دائرة وطنه فإذا غذي بالعلم الصــحيح شــعر بالحب لمن يجد فيهم صــورة الإنســانية، وكانت الأرض كلها وطن له، وهذا هو وطنه الأكبر، وهذا ترتيب طبيعي لا طفرة فيه، ولا معدل عنه، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف وأحب الوطن الكبير، ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف وأحب الوطن الصــغير**» (عمارة، 1988، صفحة 475).

ويمكننا هنا أن نطرح السؤال الآتي: لماذا لم يستعمل ابن باديس كلمة (الأمة) فيترجم بها عن أمة المغرب العربي الكبير أو عن أمة الشمال الإفريقي، أو إفريقيا أو الأمة العربية أو الأمة الإسلامية أو غير ذلك...

وللإجابة على هذا السؤال اعتمدنا على بعض العناصر الأساسية وهي:

العنصر الأول: جدير بالذكر هنا أن ابن باديس من المفسرين لكتاب الله تعالى (مجالس التذكير) ويصنف تفسيره ضمن التفسير الإصـلاحي الاجتماعي، ولذلك لا يعزب عن أمثاله أن مصـطلح الأمة في القرآن يأتي على عدة معاني مختلفة، ولكن الذي يعنيه هذا المقال ســـيأتي معنا في ثناياه مع توظيفات مفهوم الأمة، بيد أن ابن باديس تحدث عن الطور الأخير لكل أمة، وعاقبته في تفسيره حين تعرض لسورة الإسراء عند آية ((**وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**)) الإسراء 58.

فقال: « الأمم كالأفراد تمر عليها ثلاثة أطوار: طور الشباب، وطور الكهولة، وطور الكهولة.

فيشمل الطور الأول: نشأتها إلى استجماع نشاطها مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة.

ويشمل الطور الثاني: ابتداء أخذها في التقدم والانتشار، وسعة النفوذ، وقوة السلطان إلى استكمال قوتها وبلوغ غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك، بما كان فيها من مواهب وما كان لها من استعداد ما لديها من أسباب.

ويشمل **الطور الثالث**: ابتداءها في الضعف والتقهقر والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندساسها في عالم السيادة والاستقلال، وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر كما تختلف الأعمار » (ابن باديس، 2003، صفحة ص 122).

العنصر الثاني: هناك بعض المفاهيم المتداخلة التي تحول دون تخريج مفهوم الأمة مثل: الشعب، القومية، العرق، الجغرافيا، الدين، وعلاوة على ذلك فإن كل واحد من هذه المفاهيم على حدى يعد جزءا من مكون الأمة على اعتبار؛ فإن قلت الشعب والدين فشعب الجزائر مسلم وإن قلت القومية فإلى العروبة ينتسب، وإن قلت العرق؛ من قال حاد عن أصله أوقال مات فقد كذب وإن قلت الجغرافيا؛ أو رام ادماجا له رام محالا من الطلب، طبعا الإدماج لا يقصد الإدماج الوطني العربي في المسيرة التاريخية العامة المشترك، وبالتالي فالأمة الجزائرية هي هذا الشعور الوطني المتعاطف الذي شمل كل هذه المفاهيم المتداخلة وهي بهذه الاعتبارات من زاوية أخرى مكون من مكونات الأممية الإسلامية، وتلك الاعتبارات قواسم مشتركة بين النخبة الإصلاحية في الجزائر، ومن هذا المنطلق كان توظيف مفهوم الأمة يقتصر في كثير من الأحيان على نمط القطرية وأحيانا ما يطلق على مجموع الأقطار العربية، وعلى خلاف ذلك يجدر بنا الذكر هنا أن مفهوم الأمة لدى إرنست رينان (1823- 1892) يقع على الضد من مفهوم ابن باديس حيث يقطع رينان صلات اللغة والدين والعرق والجغرافيا ويلغيها عن ترجمة مفهوم الأمة ويجعل لها معيارا قائما على العرق والجنس ونقاء الدم ، وتنطوي وجهة نظره على جعل الماضي البطولي المشترك، والزعماء العظام، والمجد الحقيقي، والنسيان الجمعي المكونات الحقيقية للأمة، وفي عام 1882م ألقى خطبة في السوربون بعنوان :" ماهي الأمّة؟" وكان يتباهى بها كثيرا ويعتبرها من أنفس كتاباته ومن ضمن ما قال فيها: أنه لا يريد الأمة التي لا ننتمي إليها بحكم الولادة بالضرورة، والأمة التي لا توجد في دم عروقنا ولون بشرتنا بالضرورة، بل الأمة بما هي فكرة في الرأس، ورغبة في العيش المشترك، وإرادة تقاسم الذاكرة والنسيان معًا، وفي دراسة قام بها غسان العزي بعنوان **مفهوم أرنست رينان للدولة–الأمة الفرنسية في عصر العولمة والاتحاد الأوروبي** ، وقد خلصت الدراسة إلى أن:

« **مفهوم رينان لم يعد صالحا اليوم، على الرغم من أن الدولة–الأمة ماتزال حية في النظرية والتطبيق، بل إن العولمة والأقلمة تقويان المشاعر القومية وترسخان أهمية الدولة–الأمة بدل أن تمحوها أو تضعفها ولكن ليس على الأسس التي وضعها رينان**» (العزي، 2024، صفحة ص 288).

العنصر الثالث: تصور ابن باديس للأمة تصور ناشئ عن أمرين وهما:

الأمة تجمع كل المواطنين المتساوين بينهم في الحقوق والواجبات، وذلك يتطلب نبذ وترك كل الممارسات والأفعال والمعاملات التي تعزى إلى انتماءات وولاءات مذهبية دينية، أو قبلية عشائرية أو جهوية مناطقية، لأنها تناقض مفهوم الأمة، وبالتالي فإن هوية الأمة القائمة على ما سلف ذكره هوية قابلة للاهتزاز ومرشحة للطمس والزوال وهذا تصور متحرر من العواطف والنزعات الفردية،

يربط الأمة بنمط القومية القطرية، ويحاول المشاركة في بناء الهوية والصورة الجزائرية، ويدل أيضا على التطور الملحوظ في منظومة فكر الحركة الإصلاحية الجزائرية، وقدرته على التفكيك، وإعادة البناء، ومؤشر على قوة الوعي بالمصير والعيش المشترك وعليه؛ كأن ابن باديس يشير إلى أنه لا تفريط في خصوصيتنا، ولا نهين تاريخنا العربي الإسلامي، وفي هذا الصدد فإن بناء مستقبل الأمة لا يمكن أن يكون دون إصلاح حاضرها، مع عدم إغفال لماضيها وتاريخها الملهم لحركة الإصلاح، وكان هو موقف ابن باديس من قضية الأمة الجزائرية سنة 1936، أيضا قد جعل أصابع السياسة تتحرك متهمة الجمعية بأنها تخوض فيما لا يعنيها، فعندما نفى السيد فرحات عباس وجود أمة جزائرية في التاريخ، رد عليه بن باديس: « **بأنه نظر في الماضي والحاضر ووجد أن الأمة الجزائرية قد تكونت عبر العصور، وأن لهذه الأمة تاريخها ودينها ولغتها وثقافتها وخصائصها، وأن هذه الأمة ليست فرنسية ولا تستطيع أن تكون فرنسية ولا تريد أن تكون فرنسية** » (سعدالله، الحركة اوطنية الجزائرية 1930 – 1945، 1977، الصفحات 91 – 92).

ولذلك يجب الأخذ في الحسبان أن ابن باديس وقبله نخبة العلماء الذين بدأت معهم جذور الحركة الإصلاحية الجزائرية في الظهور يتحدثون عن الجزائر بوصفها أمة واحدة، وهذه الأمة تجمعها جغرافيا قطر واحد، ويعبر عن ذلك في كثير من الأحيان بالقومية (القطرية)، ولا أدل على ذلك من مخاطبة جريدة الشهاب للإنسان الجزائري في إشهارها لكتاب مبارك الميلي الموسوم بـ: **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، بكتاب قوميته حيث كتبت :

أيها الجزائري : هاك كتاب قوميتك وسفر مجدك وتاريخ وطنك "تاريخ الجزائر في القديم والحديث " لمؤلفه الأستاذ مبارك الميلي، فبادر بالاشتراك فيه قبل إنجاز طبعه بثلاثين فرنكا بهذا العنوان : الشيخ مبارك بن محمد الميلي مدرس بالأغواط. الجزائر، كما عنون ابن باديس مقاله بجريدة الشهاب بعنوان: **الجنسية القومية والجنسية السياسية** ، جاء فيه : « **تختلف الشعوب بمقوماتها ومميزاتها كما تختلف الأفراد، ولا بقاء لشعب إلا ببقاء مقوماته ومميزاته كالشأن في الأفراد. فالجنسية القومية هي مجموع تلك المقومات وتلك المميزات. وهذه المقومات والمميزات هي اللغة التي يعرب بها ويتأدب بآدابها، والعقيدة التي يبني حياته على أساسها، والذكريات التاريخية التي يعيش عليها، وينظر لمستقبله من خلالها والشعور المشترك بينه وبين من يشاركه في هذه المقومات والمميزات**» (بن باديس، الجنسية القومية والجنسية السياسية، 1937، صفحة 504) ، ويضيف قائلا: « **نحن الأمة الجزائرية لنا جميع المقومات والمميزات لجنسيتنا القومية، وقد دلت تجارب الزمان والأحوال على أننا من أشد الناس محافظة على هذه الجنسية القومية، وإننا ما زدنا على الزمان إلا قوة** » إلى أن يقول : « **إننا بكلامنا هذا نعرب عن فكر الأكثرية العظمى من الأمة الإسلامية الجزائرية، ونعلن أن هنالك من لا يرضيهم هذا، ومن لهم نظرات أخرى لها حظها من الاعتبار**» (بن باديس، آثار ابن باديس، ج3، 1968، الصفحات 352 – 354) .

ونشرت جريدة الشهاب مرة أخرى قصيدة لزهير الزاهري يمتدح كتاب الميلي وينوه به، وعنونت في صدرها بـ : **الإيمان بالقومية! أو تقريظ كتاب: تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمؤلفه الأستاذ مبارك الميلي، الإيمان بالقومية! أو تقريظ كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث** (الزاهري، 1931، الصفحات 29 – 30)، كما نشرت مجلة الشهاب أيضا خبر وفاة

أيت قاسي أبو السعد بعنوان: **فقيد القومية الجزائرية** أيت قاسي أبو السعد وترجم له زميله المحامي الهادي مصطفاي السطايفي (مصطفاي، السنة 6، 1930، الصفحات 247 - 248)، ناهيك عن مقال بعزيز بن عمر الزواوي: « **نظرة من وراء الطائفية إلى الوطنية**» استهله بقوله: «**إن كرامتنا القومية وعزتنا لم تسمحا، ولن تسمحا لنا بعد توالي العظات والعبر أن نعيش هذه المعيشة ونبقى هكذا أسارى الانحلال والانقسام، في وقت أدرك العالم كله ضرورة الإتحاد والوئام، بل مجدنا التاريخي يقضي علينا أن نكون على خلاف ما كنا عليه اليوم**» (الزواوي، 1931، الصفحات 90- 92)

كما قدمت صحيفة الشهاب في قصة الشهر التي نشرت في غرة ربيع لأول 1350 جويلية 1931 قصة حقيقية من واقع الأحداث التاريخية الإسلامية في زمن هشام بن عبد الملك، ونشرت بعنوان: **صدق الدين وصحة القومية**، وكتبت في مقدمة القصة: « **نرى في القصة التالية مثالا من أمثلة التضحية بالنفس في سبيل سلامة الإخوان ونصرتهم، وبمثل هذا الرجل فتح المسلمون العالم الكثير بالعدد القليل فنسوق القصة لمن لا يبالون إذا سلموا أن يهلك الناس أجمعون، والحقيقة أنه لا سلامة للفرد إلا بسلامة المجموع لو كانوا يعقلون**» (الشهاب، 1931، صفحة 458)

كما نقل أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي "أن أحمد توفيق المدني كتب سنة 1931م متحدثا عن الخطابة عند الشيخ أبي يعلى الزواوي، فقال: « **أخرج الخطب المنبرية من صيغتها التقليدية العتيقة إلى صيغة قومية مفيدة** » (سعدالله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1998، صفحة 121) .

علاقة الرابطة القومية بالنزعة الوطنية:

بعد نهاية الحرب العالمية الأولى أصبحت النزعة الوطنية طوفانا لكل أمة يتدفق، ولا تقف في وجهه الحواجز، ففي مصر وتونس وأيرلندا، وغالبية البلاد العربية، والهند وفارس والصين والأناضول؛ حركات وجمعيات تلتف حول شعار الوطنية ويربطها رباط القومية، وتدندن حول الوطنية والعزة القومية، وتصبر في سبيل ذلك على ما تلاقيه من أنواع البلاء وصنوف المحن، على اختلاف الرؤى والتصورات والمشارب والمذاهب التي تنطلق من خلالها حيال ذلك، وليس هذا في الأمم المغلوبة فقط بل هو الشأن كذلك في جميع الأمم غالبة ومغلوبة ويمكننا أن نطلق على هذه الفترة الزمنية عصر النهضات الوطنية والروابط القومية، ففي فرنسا لا يعلو صوت فوق صوت وشعار " مصلحة فرنسا–سلامة فرنسا– حقوق فرنسا"، فلا تفتتح المجالس والمؤتمرات واللقاءات من دون ذلك، وفي انجلترا حزب الأثرة الإمبراطورية والنعرة الإنجليزية أقوى الأحزاب في البلاد، وفي البلاد العربية تكاد النزعة الوطنية لا تتخلى عن العواطف الدينية والرابطة القومية ضرورة مع البعد الإنساني العام، حيث ارتبطت النزعة الوطنية في تطورها التاريخي بمفهوم التضامن العربي والإسلامي.

وقد كتب ابن باديس: « **الوطنية الإسلامية العادلة هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مكوناتها وعلى الأمة بجميع مقوماتها، وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها وأديانها، فالإنسان منذ طفولته يحب بيته وأهل بيته، وما البيت إلا الوطن الصغير**

فإذا تقدم اتسع أفق حبه، وأخذت تتسع بقدر ذلك دارة وطنه فإذا غذي بالعلم الصحيح شعر بالحب لمن يجد فيهم صورة الإنسانية وكانت الأرض كلها وطن له وهذا هو وطنه الأكبر وهذا ترتيب طبيعي لا طفرة فيه ولا معدل عنه، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف وأحب الوطن الكبير ولا يعرف ولا يحب الوطن الكبير إلا من عرف وأحب الوطن الصغير» (بن باديس، آثار ابن باديس، ج3، 1968، صفحة 366)

وذكر الدكتور المفكر محمد عمارة عن هذه الكلمات لابن باديس فقال : « **هذه الكلمات البالغة درجة عظيمة من العمق والعبقرية جعلت ابن باديس يضع يده سياسيا، في يد كل التيارات السياسية التي ناصرت عروبة الجزائر واستقلالها، بما فيها الحزب الشيوعي، وفي ذات الوقت انتقد موقف الشيوعيين الذي يقلل من خطر وأهمية الرابطة القومية، فيقول إن هناك قسما من الناس زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر، وأنكروا وطنيات الأمم وعدّوها مُفرّقة بين البشر، وعاكسوا الطبيعة جمل، وما عرفته البشرية من آلاف السنين** ». (عمارة، 1988، صفحة 475) .

ولقد أدرك أعداء ابن باديس إدراكا عميقا خطورة ربطه هذا بين العروبة والإسلام، وصلة ذلك ببعث الوطن الجزائري، فكتبوا يقولون: "**هل يمكن لنا أن نقول إنّ جمعية العلماء ملية (دينية)** ؟ نعم ... **وعجب أن يشك أحد في ذلك، ولكن هذه الملية لا تظهر مباشرة، فالعلماء يحملونها في صدورهم ولا يتحدثون بها على أن نشاطهم لا يبعدهم عنها أبدا، فكل من إصغائهم لدمشق والرياض والأزهر، وجامع الزيتونة والقرويين، وكل من دعوتهم ضد متأخري شيوخ الطرق هو لفائدة القومية الجزائرية... إن مجددي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء...وهم من أقوى الشخصيات الإسلامية في المغرب المعاصر، قد ربطوا محاولتهم لتجديد الإسلام وللقضاء على الطرق الصوفية بمحاولة تجديد الوطن الجزائري** ..." (عمارة، 1988، الصفحات 475 – 476)

القوميات العربية ومشاريع الوحدة:

مع بداية الاستعمار للبلاد العربية والتوسع الأوروبي انتهى احتكار الخلافة العثمانية للمرحلة، وبتراجع الخلافة وتقهقرها في الإصلاح، ثمّ سقوطها المدوّي سياسيا وانتهاء دورها التاريخي، وسعي القوى الاستعمارية في إجهاض قيام الدولة العربية الكبرى شهد العالم العربي في ظل هذه التطورات الدراماتيكية ظهور الدولة الوطنية القُطرية وبرزت معه أزمة البنيوية والقطيعة التاريخية التي أنبأت عن تغيير في الوعي السياسي سواء في الجانب العربي أو الجانب التركي الذي دعا فيه الإصلاحيون الأتراك بدورهم إلى فكرة القومية الطورانية، وبالفعل فإن فكرة القومية عند الأتراك العثمانيين حققت أهدافها بتأسيس الجمهورية التركية الحديثة، وحدث بذلك تغيير في العلاقات التاريخية بين الطرفين ونشب نوع من الصراع بينهما، وبالتالي أسهمت الهويات القومية الوطنية في وجود تصدع وفجوة وحالة من الشك وإشكالات، حالت دون اتخاذ خطوات حقيقية نحو الإتحاد ببعده العربي، أو الإسلامي، فكانت

الأفكار والأحلام الوحدوية، سرعان ما تتبدد حيال ذلك، بالإضافة إلى هيمنة المشاريع الاستعمارية، ومحاولاتها في تقطيع أوصال البلاد العربية وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل عن الحجم الكبير للمشكلات التي تعانيها البلاد العربية .

أمّا من ناحية الرصد التاريخي فقد بدأت جذوة الدعوة إلى الوحدة القومية العربية، بالموازاة مع ظهور الفكر الإصلاحي ، وإطلالة عصر القوميات وإن كانت فكرة توحيد العرب تحت كيان واحد شهدت قبل ذلك في الجانبين النظري أو التطبيقي منحنيات تصاعدية تارة وتنازلية أخرى، ولعل محاولة محمد علي باشا في تجسيد الفكرة مع الاستقلال عن التبعية المباشرة للخلافة العثمانية، ثم مجيئ المفكر عبد الرحمن الكواكبي بدعوته إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادة العنصر العربي، وقد ظهر ذلك واضحا في كتابه أم القرى تحت اسم الفراتي، وتجلت فيه الدعوة إلى إقامة خلافة عربية، وكذا مصطفى كامل بشعاره مصر للمصريين درءا لكل سلطة خارج سلطة المصري، وتأييد أولاد الشريف حسين ما انتشر في الحجاز وسورية وفلسطين والعراق من انتشار دعوة العصبية للعربية والامتناع من قبول تدخل أحد من الأعاجم في شأن الحكم والسلطان في شيء من البلاد العربية؛ بيد أن الفكر والوعي القومي عند جمال الدين الأفغاني قد بلغ مستويات عالية من النضج، سيما حين ألقى محاضرته في السوربون دفاعا عن العروبة و ردا على محاضرة أرنست رينان التي قلل فيها من شأن الجنس العربي، وعطفا على ما سبق كان سعي جمال الدين الأفغاني وجملة من الإصلاحيين في العالم العربي إلى استقلال الولايات العربية عن الخلافة العثمانية أحد أهم معالم بناء مشروع القومية على المستوي القطري (القومية القطرية) ، وما أصبح يطلق عليه الدولة الوطنية أو على مستوى الدولة العربية الكبرى التي تتبع روحيا إلى الحجاز ولكن يبقى تحديد سلطتها السياسية محل خلاف، وبالتالي نجد بعض رواد الحركة الإصلاحية الجزائرية يتحدثون عن وحدة قومية عربية، دون التفصيل في الوحدة السياسية، أو الإسهاب في الحديث عنها، يقول محمد البشير الإبراهيمي:

« **وقومي هم العرب أولاً والمسلمون ثانياً، فهم شغل خواطري، وهم مجال سرائري، وهم مالئو أرجاء نفسي ومالكو أزمة تفكيري...**» (الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، 1997، صفحة 482) ، وعن أهمية الصحافة في ترسيخ مفاهيم الوحدة العربية يقول مبارك الميلي: « **وواجب الصحافة الصادقة الرزينة ومن أهلته مواهبه أن يكون حديث الأجيال ليتبوؤوا منزلة سامية في التاريخ العربي المنظم لتوحيد العالم العربي في كل مظاهره الحيوية ، وتنمية الروابط بين شعوبه**». (محمود، 2012، صفحة 443)

أما عن دور الجمعيات العربية في تحقيق الوحدة فقد حددها مبارك الميلي فيما يلي :

- توحيد الثقافة : أي بعقد الجولات في الاوطان العربية للتعارف بجمعياتها العاملة وأشخاصها البارزين.
- توحيد الاخلاق : بتجديد الخطب الجمعية وتوحيد المسارات في النوادي ، وانشاء المقالات في الصحف.
- توحيد الدين اعتقادا وعباده ومعامله : بتحرير ما لا يعد المرء مسلما إلا به، وما يعد معه المرء مارقا من الدين.

أما الاعمال الاقتصادية والصناعية وما يقرب علينا اللهجات واللباس والتجملات فيمكن تأديتها مصاحبة للنواحي الثلاث السابقة. (محمود، 2012، الصفحات 443 - 444)

وإذا ما أردنا أن نجمل القول هنا؛ فإن التيارات القومية العربية التي نشأت في البلاد العربية بين السكان المسلمين والمسحيين تنقسم إلى خمس تيارات أساسية:

1ـ تيار يسعى لإقامة خلافة عربية بدل الخلافة العثمانية.

2ـ تيار يدعو إلى انفصال البلاد العربية عن الخلافة العثمانية لأجل تأسيس الدولة العربية المستقلة.

3ـ تيار يطلب الحماية في أوروبا.

4ـ تيار يطالب بإصلاحات خاصة في الولايات العربية

5ـ تيار يطالب بإصلاحات عامة بالاشتراك مع الأحرار الترك، وتكون شاملة لجميع الولايات العثمانية، وتستفيد منها الولايات العربية في نفس الوقت .

وبالتالي فإن التيار الأول كان خاصا ببعض الجماعات من المسلمين، والتيار الثالث خص ببعض الجماعات من المسحيين وأما الثلاثة الباقية فكانت تستقطب كلا من الفضاءين الإسلامي والمسيحي.

خاتمة:

نستنتج من خلال ما سبق:

- بروز الوعي القومي في فكر الحركة الإصلاحية الجزائرية، ومحاولة التركيز في أدبيات الحركة على مشروع الوحدة القومية القطرية، أو ما يطلق عليه اليوم الدولة الوطنية، الذي يتقاطع أي يلتقي ويفترق مع أي نوع آخر من مشاريع الوحدة، ومن زاوية أخرى محاولته في كثير من الأحيان تحرير العروبة وتخليصها من شحنة القومية وإرجاعها إلى سياقاتها اللغوية لمواجهة لغة المستعمر، والمحافظة على الهوية والشخصية الجزائرية، مع تنمية كل أسباب وروابط الإتحاد العربي بين شعوبه وسلطاته.
- كما نستخلص أن دلالة الأمة في التداول الفكري لدى الحركة الإصلاحية يشير بجلاء ووضوح إلى فكرة المواطنة المتساوية والمشتركة، وأن فكرة القومية الأممية تتمتع بقوة ودافعية ذاتية تحرك على النضال والكفاح والعمل، ولطالما كانت هذه الفكرة موضوع بحث واهتمام لدى كثير من الحركات والجمعيات الإصلاحية لكل دولة عربية على حدة، وفي بعض الأحيان عند التيارات والجمعيات التي تتألف بمجموعها من منتسبي كل الدول العربية أيضا.

المصادر والمراجع:

1- أبو خليل ساطع الحصري. (1951). محاضرات في نشوء فكرة القومية (المجلد 1). القاهرة، مصر: مطبعة الرسالة.

2- أبو عبدالرحمن محمود. (2012). آثار الشيخ مبارك الميلي 1896 – 1945 (المجلد 1). الجزائر: دار الرشيد.

3- أبوالقاسم سعدالله. (1977). الحركة اوطنية الجزائرية 1930 – 1945 (المجلد ج3). المنظمة العربية للتربية والعلوم، جامعة الدول العربة.

4- أبوالقاسم سعدالله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (المجلد 1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

5- الشهاب، قصة الشهاب، جريدة الشهاب، جويلية 1931.

6- الهادي مصطفاي. (السنة 6، 1930). فقيد القومية الجزائرية أيت قاسي أبو السعد. جريدة الشهاب(المجلد 6، السنة6).

7- أوموت أوزكيريملي. (2013). نظريات القومية مقدمة نقدية (المجلد 1). (ترجمة معين الإمام، المحرر) بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

8- بعزيز بن عمر الزواوي. (الجزء الثاني، الملجد السابع مارس, 1931). نظرة من وراء الطائفية إلى الوطنية. جريدة الشهاب.

9-زهير الزاهري. (فيفري, 1931). الإيمان بالقومية أو تقريظ! كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث لمؤلفه الأستاذ مبارك الميلي. جريدة الشهاب، الجزء الأول، المجلد السابع.

10- عبد الرحمان ابن خلدون. (1984). تاريخ ابن خلدون. بيروت: دار القلم.

11- عبدالحميد ابن باديس. (2003). مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب وتدقيق محمد شهين ومحمد الصالح رمضان. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

12- عبدالحميد بن باديس. (فيفري, 1937). الجنسية القومية والجنسية السياسية. جريدة الشهاب، صفحة الجزء 12، المجلد 12.

13- عبدالحميد بن باديس. (1968). آثار ابن باديس، إعداد وتصنيف عمار طالبي، ج3 (المجلد 1). الجزائر: الشركة الجزائرية.

14- غسان العزي. (2024). مفهوم أرنست رينان للدولة – الأمة في عصر العولمة والاتحاد الأوروبي. (ع 4، ج 52، المحرر) مجلة العلوم الاجتماعية.

15- مجاهد يمينة. (2006 – 2007). مشروع الدولة والأمة في أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية 1946 – 1954. ماجستير تاريخ حديث ومعاصر. جامعة وهران، السانيا.

16- محمد البشير الإبراهيمي. (03 جويلية, 1936م). لا يبني مستقبل الأمة إلا الأمة. جريدة البصائر، عدد 26. الجزائر.

17- محمد البشير الإبراهيمي. (1997). آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (الإصدار ج 3، عيون البصائر، المجلد 1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

18- محمد عمارة. (1988). مسلمون ثوار (المجلد 1). القاهرة: دار الشروق.

References:

1- Abu khalil satie alhasrii. (1951). muhadarat fi nushu' fikrat qawmia (almujalad 1). alqahirata, masr: matbaea t alrisalati

2- Abu Abdalrahman mahmoud. (2012). Ataar alshaykh moubarak almili 1896 - 1945 (almujalad 1). aljazayir: dar alrashid.

3- Abu alqasim saadallah. (1998). tarikh aljazayir althaqafii (almujalad 1). bayrut: dar algharb al'iislamii

4-Abualqasim saedallah.. (1977). biwalharakat awtaniat aljazayiriat 1930 - 1945 (Vol. ja3). almunazamat alea

rabiat liltarbiat waleulumi, jamieat alduwal aleariati.
5- Alshahabi, qisat alshahabi, jaridat alshihabi, juiliat 1931.
6- Alhadi mustafay. (alsunat 6, 1930). faqayd alqawmiat aljazayiriat 'ayt qasi 'abu alsaedu. jaridat alshahab(al mujalad 6, alsanatu6).
7- Owmut 'uwzkirimli. (2013). nazariaat alqawmiat muqadimat naqdia (almujalad 1). (tarjamat muein al'iimam, almuhariru) bayrut: almarkaz alearabia lil'abhath wadirasat alsiyasati.
8 - Bieaziz bn eumar alzawawi. (aljuz' althaani, almaljad alsaabie maris, 1931). nazrat min wara' altaayifiat 'iil aa alwataniati. jaridat alshahab.
9-Zahir alzaahiri. (fifri, 1931). al'iiman bialqawmiat 'aw taqrizi! kitab tarikh aljazayir fi alqadim walhadith lim ualifih al'ustadh mubarak almili. jaridat alshahabi, aljuz' al'awala, almujalad alsaabieu.
10- Abd alrahman abn khaldun. (1984). tarikh abn khaldun. birut: dar alqalami.
11- Abdalhamid aibn badis. (2003). majalis altadhkir min kalam alhakim alkhabiri, jame watartib watadqiq mu hamad shahin wamuhamad alsaalih ramadan. bayrut, lubnan: dar alkutub aleilmiati.
12- Abdalhamid bin badis. (fifri, 1937). aljinsiat alqawmiat waljinsiat alsiyasiatu. jaridat alshahabi, safhat alju z' 12, almujalad 12.
13- Abdalhamid bin badis. (1968). athar abn badis, 'iiedad watasnif eamaar talibi, ja3 (almujalad 1). aljazayar: alsharikat aljazayiriatu.
14- Ghasaan aleazi. (2024). mafhum 'arnist rinan lildawlat - al'umat fi easr aleawlamat walaitihad al'uwrubiy. (e 4, j 52, almuhariru) majalat aleulum alaijtimaeiati.
15- Mujahid yaminata. (2006 - 2007). mashrue aldawlat wal'umat fi 'adabiaat alharakat alwataniat aljazayiriat 1946 - 1954. majistir tarikh hadith wamueasiru. jamieat wahran, alsaanya.
16- Muhamad albashir al'iibrahimii. (03 juilit, 1936mi). la yabni mustaqbal al'umat 'iilaa al'umata. jaridat albas ayir, eadad 26. aljazayir.
17- Muhamad albashir al'iibrahimii. (1997). athar al'iimam muhamad albashir al'iibrahimi (al'iisdar j 3, euyun albasayir, almujalad 1). bayrut: dar algharb al'iislamii.
18- Muhamad eimarata. (1988). muslimun thuaar (almujalad 1). alqahirata: dar alshuruq.